ومنه قوله تعالى :﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ .. (٤٣) ﴾ [إبراهيم] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. (١٠) ﴾ [القصص] يعنى : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي[1] ﴿ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾ [القصص] لأن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ[2] فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾

قُصِّيه : يعنى : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى أين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سمعت الأختِ هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ (١١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : فقصَّته ؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

---

(١) قال ابن عباس : أي تصيح عند إلقائه : وا ابناه . وقال السدي : كادت تقول لما حملته لإرضاعه وحضانته : هو ابني . وقيل : إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول : هو ابني . [تفسير القرطبي ٥١٤٢/٧] .

(٢) القصُّ : اتباع الأثر . ويقال : خرج فلان قصصاً في أثر فلان وذلك إذا اقتص أثره . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامرى :﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. (٩٦) ﴾ [طه] أى : رأى من حيث لا يطَّلـع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ .. (١١) ﴾ [القصص] فقط ولم تـلفت نظرها إلى هذا الاحتـياط ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القصص] مما يدلُّ على ذكاء الفـتاة وقيامها بمهمتـها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّـف بذلك ، وهذا من حكمـــة المـرسَل الحـــريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فى حَاجةٍ مُرْسِـلاً فأرسِـلْ حكيمـاً ولاَ تُوصِـهْ

وقـوله تعـالى : ﴿عَن جُنُبٍ .. (١١) ﴾ [القـصص] يظن البـعض أن جنب يعنى قـريب منى ، وهذا غـيـر صـحيـح ؛ لأن معنـى الجنب ألاَّ تكون فى مواجـهتى ، لذلك يقـول تعالى :﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ .. (٣٦) ﴾ [النساء] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قـولنا : (فـلان تجنَّبنى ، أو فـلان واخـد جنب منى) أى : يبتعد عنى ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ .. (٣٥) ﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾ [الحج] فالاجتناب يعنى : الابتعاد .

وفي تحريم الخمر قال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ[1] رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً في التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهي مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] لعلمتَ أنها أقوى في التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرَّمْت عليكم الخمر يعني : لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] يعني : ابتعدوا عنها كليةً شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس في مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) ﴾

التحريم هنا لا يعني التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] يعني : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائي يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و ﴿ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

---

(١) الأزلام : جمع زَلَم : وهي قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح ، يُكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرّم شرعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٨٩] .

واقرأ أول سورة الحج : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. (٢)﴾ [الحج]

المرضع : التى من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التى تُرضع الآن فعلاً ، وعلى حجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفى موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتى تذهل هى المرضعة لا المرضع .

والضمير فى ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. (١٢)﴾ [القصص] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت فى مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)﴾ [القصص] فقال لها : لابدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحون للملك مخلصون له[1]. وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣﴾

وسبق أنْ وعدها الله :﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ.. (٧)﴾ [القصص] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثانى ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] لكن هذا فى مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

---

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم [تفسير ابن كثير ٣/٣٨١] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ .. (١٣) ﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب فى يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا ، ونُمهِّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [القصص] يعنى : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

الأشُدّ : يعنى القوة واكتمال النمو ، وقد حدَّدوا لذلك سنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ واستوَىٰ .. (١٤) ﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغُ العقل مرحلةَ النضج الفكرى ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿ آتيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا وكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِين (١٤) ﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

أراد موسى - عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط فى بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بنى إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل فى الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس فى بيوتهم (١) .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : من بنى إسرائيل ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : الأقباط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ .. (١٥) ﴾ [القصص] أى : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطى وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدُث هذه المسألة فى شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسِّطه فى أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أنْ يقضى لك حاجتك فتقول : « فلان قضالى كذا وكذا » وهو فى الحقيقة ما قضى فى الأرض إلا بعد أن قضى الله فى السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول فى هذه الحالة : قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قُلْنا - يكرهون بنى إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما

(١) قاله سعيد بن جبير وقتادة . وقاله ابن عباس أيضاً ، وفى رواية عنه : هو بين العشاء والعتمة . [تفسير القرطبى ٧/٥١٤٦] .

قتلَ موسى القبطى زاد غضبهم وكراهيتهم لبنى إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص]

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾

يُعلمنا موسى - عليه السلام - أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغي عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .. ﴿١٦﴾﴾ [القصص] يعنى : يا ربّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾[الإسراء] وقال :﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾[ص] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتى بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن افْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[القصص] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع فى المعصيـة إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى فى معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً فى أنه لن يُطرَدَ من رحـمة الله ، لأن رحـمـة الله واسعـة تسَع كل ذنوبه مـهمـا كثُرتْ .

لذلك يقول تـعالى فى مشـروعيـة التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨) ﴾ [التوبة] والمـعنى : شرع لهم التـوبة ، وحثَّـهم عليهـا ليتـوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ(١) فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾

قـوله : ﴿ بِمَـا أَنْعَـمْتَ عَلَيَّ .. (١٧) ﴾ [القـصص] يعنى : بالمـغـفـرة وعذرتنى وتُبْت علىَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص] أى : عهد الله علىَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين(٢) .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) أى : من المعرفـة والحكمة والتوحيـد . قاله القرطبى فى تفسـيره (٥١٤٨/٧) وقال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٢/٣) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة » .

(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حين كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يُسمَّى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى المـؤدية إلى قتل الذى لم يحل له قـتله . [القرطبى فى تفسيره ٥١٤٨/٧] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى : بعد أن قتل موسى القبطىَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]

ينظر فى وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه[1] ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذونى ، فلو جلس قوم فى مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شىء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللى على راسه بطحة يحسس عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] استصرخ يعنى : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسبق أنْ تكلَّمنا فى همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعنى استنجد بأحد فأصرخه يعنى : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخى .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أوقعه فى هذه

---

(١) قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث الناس به . [تفسير القرطبى ٧/٥١٥٠] وانظر الدر المنثور للسيوطى (٦/٤٠٠) .

الورطة بالأمس ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ⑱ ﴾[القصص] تريد أنْ تُغويَنى بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كان موسى - عليه السلام - ليقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين[1].

﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ[2] أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ⑲ ﴾

قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا .. ⑲ ﴾[القصص] يعنى : أن موسى حَنَّ مرة أخرى للذى من شيعته وهو الإسرائيلى وناصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المرة واجهه ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. ⑲ ﴾ [القصص] فهو يعرف ما حدث من موسى ، وما داموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينتقموا منه .

وقوله تعالى :﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ⑲ ﴾ [القصص] إنْ هنا نافية يعنى : ما تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلنى اليوم .

إذن : عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسعى

---

(١) نص حديث لرسول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) القائل هنا هو : الإسرائيلى الذى من شيعة موسى والذى كان قد استصرخه بالأمس . قال سعيد بن جبير : أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده ، لأنه أغلظ له فى القول ، فقال : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. ⑲ ﴾ [القصص] فسمع القبطى الكلام فأفشاه . [تفسير القرطبى ٧/٥١٥١] .

للإمساك به ، وفى هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن :

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسكوا به فيقتلوه(١) .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار فى طريق صادف أنْ يؤدى إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً

(١) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ذكره الثعلبى . وقيل : طالوت ذكره السهيلى . وقال المهدوى عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبى ٥١٥٢/٧] .

يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا - إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شيء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : تكفَّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ٢٤٧/١] .

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا..(٢٣)﴾[القصص] أي : ما شأنكما ؟

وفي الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعني : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وقولهما ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] يعني : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتي للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أي : بذاته ، وأصدر يُصْدِر أي : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقي حتى يسقي الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة في خروجهما لسَقْي الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

معنا - إذن - في هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ..(٢٣)﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن **الحكم الأول** نعلم أن سَقْي الأنعام من عمل الرجال ، ومن **الحكم الثاني** نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدي مهمة الرجل إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها فى السيارة ، ثم سرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفى قوله تعالى : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فكان موسى ـ عليه السلام ـ طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣٨٣/٣] .

للمرأتين تولَّى إلى ظلٍّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]

كأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿رَبِّ .. (٢٤)﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر ونواه ، أمّا الرب فهو المتولِّى للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدك ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿أَنزَلْتَ .. (٢٤)﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عبد مثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خير فى الدنيا لا بُدَّ أن ينتهى إلى الله المنعم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمد لله) صيغة العموم فى العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس(١) .

ذلك لأن أزمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢٥٨/٢) ، والترمذى فى سننه (١٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى - عليه السلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ(١) قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) ﴾

قوله : ﴿إِحْدَاهُمَا .. (٢٥)﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. (٢٥)﴾ [القصص] يعني : : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. (٢٥)﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها ، قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب - مادة : سلفع] .